**إتمام توحيد البلاد**

**معركة تربة**

صادف تولي الشريف الحسين بن علي إمارة مكة سنة 1326هـ تعاظم قوة ابن سعود في نجد، مما حدا بالشريف حسين ليغزو نجد بعد في عام 1328هـ -كما ذكر سابقاً- في محاولة لإظهار تفوق أشراف الحجاز وتحجيم قوة ابن سعود. وهذا يعني أن العلاقة بين ابن سعود والشريف حسين لم تكن جيدة منذ الوهلة الأولى. وأثناء الحرب العالمية الأولى ازداد التوتر بين الطرفين بسبب خلافهما حول واحتي الخرمة وتربة حيث يزعم الشريف حسين بأنهما تابعتين للحجاز تاريخياً بينما يزعم ابن سعود أن سكان تلك الواحتين أتباع لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية وبالتالي فهم يتبعونه. وكان من أهم هؤلاء المتأثرين بدعوة الشيخ أمير الخرمة الشريف خالد بن لؤي، وقد حاول الشريف حسين أن يخضع ابن لؤي عسكرياً عدة مرات، ولكن ابن لؤي ومن انضم له من الإخوان نجحوا بإفشال تلك المحاولات.

وفي عام 1337هـ كان الشريف حسين منتشياً بعد انتصاره على العثمانيين في المدينة النبوية، فبدأ يفكر بشن حملة كبيرة لإخضاع تربة والخرمة، وقد شجعته بريطانيا على المضي قدماً نحو هذا الهدف مؤكدة له بأن تلك المنطقة تابعة له وليست تابعة لابن سعود. جهز الشريف حسين جيشاً نظامياً وزوده بالأسلحة الحديثة والمدافع وجعل على قيادته ابنه عبد الله. تقدم الجيش إلى تربة ودخلها دون مقاومة تذكر. فبعث ابن سعود الإخوان وكان معظمهم من قبيلة عتيبة وبعض قحطان وجعل عليهم أميراً سلطان بن بجاد، فعسكروا بين تربة والخرمة. ومع مطلع الفجر انقضوا على معسكر عبد الله بن الحسين، فأبادوا أغلب جيشه، واستولوا على ما كان مع عبد الله من أسلحة ومؤن وماشية.

تأثر الشريف حسين تأثراً كبيراً بسبب نتيجة المعركة، فخاف أن يواصل السعوديون زحفهم على الحجاز فزاد تعنته وقطع التعامل التجاري مع النجديين ومنعهم من الحج. ولذا حاولت بريطانيا طمأنة الشريف حسين وتهدئته فأمدته بالطائرات وأجبرت ابن سعود على الانسحاب من تربة.

**ضم منطقة عسير**

لم يكف أهل عسير عن مقاومة التدخل الخارجي في منطقتهم منذ وصول قوات محمد علي باشا إلى عسير، رغم أن الكفة مالت في معظم الأحيان لقوات محمد علي وقوات الدولة العثمانية. ثم أوجد العثمانيون حلاً وسطاَ حين عينوا حسن بن عائض -أحد زعماء عسير- معاوناً للمتصرف العثماني. وبعد انسحاب العثمانيون من المنطقة في عام 1336هـ أصبح ابن عائض حاكماً مستقلاً في عسير. ولكن ابن عائض لم يهنئ طويلاً باستقلاله، إذ أنه لم يكد يتخلص من أطماع العثمانيين في المنطقة إلا وبدأ الشريف حسين -ملك الحجاز- والإدريسي -حاكم جازان- يتطلعان لمد نفوذهما في عسير. وفي أثناء تلك الأحداث كانت قوة ابن سعود تتعاظم في نجد خاصةً بعد أن حققت قواته المشكلة غالباً من حركة الإخوان بتحقيق انتصار ساحق على قوات الشريف حسين في تربة عام 1337هـ. ولذا فإن ابن سعود بعد أن اتسعت رقعة حكمه حتى وصلت حدود إمارته منطقتي الحجاز وعسير بدأ يفكر باستغلال أية فرصة سانحة لمد نفوذه في هاتين المنطقتين. وبالفعل، حين علم ابن سعود بحدوث خلاف بين بعض فئات منطقة عسير أرسل وفداً من عنده للوساطة بين الأطراف المتنازعة، لكن ابن عائض لم يقبل تلك الوساطة واعتبرها تدخلاً في شؤونه الداخلية. رأى ابن سعود أن ردة فعل ابن عائض سبباً كافياً لإرسال جيوشه إلى عسير. وصل قائد الجيش السعودي عبد العزيز بن مساعد بن جلوي إلى عسير في عام 1338هـ، فهب ابن عائض لمنازلة ذلك الجيش. دارت بين الطرفين معركة في حَجْلة، وأسفرت نتيجتها عن انتصار لأتباع ابن سعود. عاد ابن عائض وتحصن في أبها، ولكن حين اقترب جيش ابن مساعد من البلدة خرج منها ابن عائض، ثم استسلم لاحقاً، وأخذ إلى الرياض.

وبعد إقامة آل عائض عدة أشهر في الرياض، عين ابن سعود حسن بن عائض أميراً على عسير وخصص له مرتباً شهرياً. ويبدو أنه لم يرض بكونه حاكماً باسم ابن سعود فبدرت منه بعض التصرفات التي لم يقبلها ابن سعود فعزله عن الإمارة. وبعد مدة تزعم ابن عائض ثورة في عسير وأخرج الأمير السعودي من أبها في عام 1340هـ. فلما بلغ ابن سعود الخبر سير جيشاً من الإخوان تحت قيادة ابنه فيصل، فنجح باستعادة أبها بعد أن فر منها حسن بن عائض. ثم عين الأمير فيصل على أبها سعد بن عفيصان أميراً وعاد إلى الرياض. فلما علم آل عائض بعودة الأمير فيصل إلى الرياض عاودوا ثورتهم وحاصروا أبها وحدثت معركة بينهم وبين حامية ابن سعود أصيب فيها ابن عفيصان إصابة تسببت في وفاته بعد ثلاثة أيام من المعركة. كادت أبها تسقط مجدداً في يد آل عائض لولا أن نجدة وصلت من الرياض بقيادة عبد العزيز بن إبراهيم الذي تولى إمارة أبها، والذي نجح أخيراً بإقناع آل عائض بأن يتركوا المقاومة المسلحة على أن يقدم لهم ابن سعود ما يحفظ لهم مكانتهم. وبذلك نجح ابن سعود في توطيد حكمه في منطقة عسير.

**ضم حائل**

أصبح موقف ابن سعود بعد بسط نفوذه على منطقة الأحساء ذات الأهمية الاقتصادية الكبيرة أكثر قوة. وفي عام 1337هـ تبلورت حركة الإخوان وأصبحت قوةً ضاربةَ في جيش ابن سعود يستطيع أن يسخرها حسب إرادته. ثم انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية مما زاد من ضعف إمارة آل رشيد التي كانت أساساً قد أرهقت بسبب الاقتتال الداخلي. وبعد أن نجح ابن سعود بالسيطرة على منطقة عسير سنة 1338هـ رأى ضرورة القضاء على إمارة آل رشيد.

وقد بدأت العمليات العسكرية للسيطرة على حائل حين سيّر ابن سعود جيشاً بقيادة ابنه سعود ومعه قوةً كبيرةً من الإخوان إلى حائل، فنجح بالإغارة على فئات من قبيلة شمر، ثم عاد إلى الرياض. واستمر ابن سعود بإرسال غارات الإخوان على حائل وبادية شمر. وفي عام 1339هـ توجه ابن سعود إلى القصيم، ومن هناك جهز أتباعه -خاصةَ الإخوان- لغزو حائل، وقسمهم إلى قسمين: أحدهما بقيادة ابنه سعود، والآخر بقيادة أخيه محمد. فحاصرت تلك القوات مدينة حائل، ولما اطمأن ابن سعود لموقف جيشه استدعى أخاه محمد وجعل القيادة لابنه سعود. فلما اشتد الحصار خرج بعض أمراء حائل وزعماؤها إلى سعود، وبينوا له رغبتهم بمقابلة أبيه، فترك سعود الجيش المحاصر لحائل وركب مع هؤلاء إلى والده. فغضب ابن سعود بسبب ترك ابنه للجيش دون قيادة، وأمر فيصل الدويش -أمير الإخوان من قبيلة مطير- بالتوجه فوراً لقيادة الجيوش المحاصرة لحائل. فلما اقترب الدويش خرج أميرها محمد بن طلال لمجابهته. وحين علم ابن سعود بخروج أمير حائل من البلدة تحرك سريعاً من القصيم، وقد انضم له الكثير من الحاضرة والإخوان، وقد حمل معه عدداً من المدافع. ولما وصل إلى حائل أرسل فئات من جيشه ليلاً لتحيط بقوات ابن طلال. ومع طلوع الفجر شنت قوات ابن سعود هجومها من جميع الجهات على قوات أمير حائل، فقتل الكثير منها ولجأ الباقون إلى البلدة.

بعد هذا الانتصار توجه ابن سعود إلى حائل وشدد الحصار عليها، فضعف موقف أهلها شيئاً فشيئاً، وبدأت تنفد المؤن بسبب طول مدة الحصار. اقتنع كبار حائل حينئذٍ أن صمودهم ودفاعهم عن البلدة لن يغير شيئاً في مجرى الأحداث التي دلت بكل وضوح على أن سقوط حائل في يد ابن سعود مسألة وقت ليس إلا لما يملكه من قوةً أصبحت تفوق قوة حائل كثيراً. وفي عام 1340هـ اتفق كبار مدينة حائل مع ابن سعود على أن يفتحوا له أبواب البلدة على أن يعطي أهلها وأميرها الأمان. وبذلك يكون ابن سعود قد نجح بتوحيد كامل منطقة نجد تحت سلطته.

**ضم الحجاز**

لما نقضت بريطانيا وعدها للشريف حسين بأن تجعله ملكاً على العرب في حال مناصرته لها ضد العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى أراد الانتقام لنفسه واستغلال سقوط الدولة العثمانية فسمى نفسه خليفة للمسلمين. أغضب هذا الأمر ابن سعود ونشر بياناً في عدة صحف عربية وهندية وضح فيه عدم أهلية الشريف حسين لتولي الخلافة. ولما كانت بريطانيا قد حققت جميع أهدافها في المنطقة ابتداءً باستمالة معظم الحكام المحليين إلى جانبها خلال الحرب العالمية الأولى وانتهاءً بسقوط الدولة العثمانية فقد أوقفت المعونات المالية التي كانت تدفعها لأولئك الحكام، وقد كان ابن سعود من ضمن أولئك الحكام التي أوقفت عنهم بريطانيا المعونة. وبالتالي فإن ابن سعود لم يعد ملزماً بأي التزامات تجاه بريطانيا، فبدأ يعد العدة لمهاجمة الحجاز.

في عام 1343هـ بعث ابن سعود قوات الإخوان بقيادة سلطان بن بجاد وخالد بن لؤي إلى تربة. فلما اجتمعت جميع القوات هناك تحركت مباشرة نحو الطائف، ونجحت باكتساح حصونها، رغم أن الحامية التابعة للشريف حسين استمرت بالمقاومة وأطلق نيران المدافع لثلاثة أيام. ولما انسحبت تلك الحامية انقضت قوات الإخوان على كل من قابلها من أهل الطائف محدثة مقتلة عظيمة بين السكان. ولما سمع أهل مكة بالمذبحة التي حدثت في الطائف أصابهم ذعر شديد، وفر كثير منهم إلى جدة. فتأثر الشريف معنوياً وشعر هو وقواته بالهزيمة رغم أن قوات الإخوان لا تزال في الطائف. ولذلك اقترح وجهاء الحجاز أن يتنازل الشريف حسين عن الملك لابنه علي وأن يخرج من مكة أملاً في حقن الدماء. فلم يجد الشريف حسين بدأ من النزول على رغبتهم والخروج إلى جدة، ومن هناك غادر إلى العقبة. ورغم ذلك خاف الملك علي من البقاء في مكة فغادرها هو أيضاً وتوجه إلى جدة. حينئذٍ اتصل وجهاء مكة بالشريف خالد بن لؤي وطلبه منه أن يدخل مكة سلمياً، وقد كانوا بفعلهم هذا يريدون أن يقطعون الطريق على سلطان بن بجاد وأتباعه قبل أن يدخلوا مكة بالقوة فيفعلوا في أهلها كما فعلوا بأهل الطائف. فدخلها ابن لؤي ومعه الإخوان وكانوا جميعاً محرمين يهللون ويكبرون، ولم يحدث أي اقتتال في الأرض الحرام. وبعد أن استتبت الأمور في مكة تولى مقاليد الأمور فيها خالد بن لؤي.

لما علم الملك علي بما حصل في مكة أرسل إلى ابن سعود مبدياً الرغبة بالصلح، فرفض ذلك ابن سعود وأصر على تخلي علي عن الحكم. وبعد أن وصل ابن سعود إلى مكة بقي فيها شهراً ثم جهز جيشه وزحف إلى جدة. ولما اقترب منها عسكر في الرغامة. وقد كان موقف الملك علي في جدة قوياً لعدة عوامل: أولاً: أن جدة مدينة حصينة، وقد عمل الملك علي على زيادة تحصينها بالخنادق والأسلاك الشائكة. ثانياً: رغم أن الملك علي يمتلك أسلحة متقدمة كالطائرات والمدافع والمصفحات إلا أنه وصلته إمدادات إضافية من الأسلحة من أبيه وأخيه عبد الله ملك الأردن. ثالثاً: أن في جدة العديد من القنصليات وممثلي الدول الأجنبية، فلم يرد ابن سعود أن يشن هجوماً شاملاً قد يذهب ضحيته بعض الأجانب الذين وضحوا له أنهم على الحياد من الحرب القائمة بينه وبين الملك علي فيدخل في خلافات سياسية مع دول أجنبية. تسببت هذه العوامل في إطالة الحصار حول جدة الذي تخلله بعض الاقتتال بين الطرفين بين فترة وأخرى.

وأثناء حصار جدة كان ابن سعود يبعث السرايا إلى المدينة النبوية، وكان من ضمن تلك السرايا سرية بقيادة أمير قبيلة مطير فيصل الدويش وسرية بقيادة أمير قبيلة حرب عبد المحسن الفرم، فضربتا تلك السريتان حصاراً على المدينة. وقد استمر حصار المدينة إلى عام 1344هـ، فلما كادت تنفد المؤن اقتنع أصحاب الحل والعقد من أهل المدينة بأن الأفضل لهم الدخول في طاعة ابن سعود. فبعث ابن سعود ابنه محمد ليتسلم شؤون المدينة.

عزز دخول المدينة في طاعة ابن سعود من موقفه وأضعف موقف الملك علي في جدة. ولما بلغ أهل جدة خبر دخول المدينة في طاعة ابن سعود ازداد يأسهم، وكان ابن سعود مطلعاً على الحالة المعنوية في جدة، فأعلن العفو عمن يغادرها. فنتج عن ذلك خروج بعض أهل جدة وجنودها، فأيقن الملك علي بأن سقوط جدة في يد ابن سعود مسألة وقت ليس إلا. حين ذلك طلب الملك علي من المعتمد البريطاني ليتوسط بين الطرفين ويعرض على ابن سعود شروط التسليم. وبعد مفاوضات اتفق الطرفان على أن يتنازل الملك علي عن ملك الحجاز، ويرحل عنها بممتلكاته الشخصية فقط. كما تعهد ابن سعود بمنح عفو عام لأهالي جدة. وبذلك دخلت منطقة الحجاز كاملة ضمن المناطق التي وحدها ابن سعود.

**مشكلة الإخوان**

سبقت الإشارة إلى أن الإخوان قد ظهر عليهم الغلو منذ المرحلة المبكرة من مراحل التوطين، فكان في نظرتهم للحاضرة ولمن لم يستوطن الهاجرة من البادية نوعاً من التطرف. ومن مظاهر الغلو أنهم كانوا يوقفون الناس في البلدان لمساءلتهم عن أصول الدين وأحكامه. بل إنهم بدأوا يشككون في إيمان غيرهم من الحاضرة والبادية، فحرموا ذبائحهم وأباحوا الاعتداء عليهم.

وبعد أن أتم الملك عبد العزيز السيطرة على منطقة الحجاز بدت بعض مظاهر الخلاف بينه وبين عدد من قادة الإخوان؛ خاصة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين. وكان من أهم أسباب الخلاف دخول المخترعات الحديثة كالبرقيات والهاتف، وتعامل الملك عبد العزيز مع الدول الأجنبية. وقد حدثت عدة حوادث ترتب عليها توتر العلاقة بين الملك عبد العزيز وقادة الإخوان. ولعل أول هذه الحوادث قد حدث قبل إتمام السيطرة على الحجاز، وهو أن أبرز القادة الذين توجهوا إلى الحجاز كان سلطان بن بجاد وأتباعه كانوا هم الأكثرية، ورغم ذلك فقد أسندت الأمور إلى خالد بن لؤي في مكة. يبدو أن سلطان بن بجاد شعر بأنه لم يحصل على ما كان يستحق من التقدير والمكانة، والدليل على ذلك أنه عاد إلى نجد حين كان ابن سعود محاصراً لجدة. وثاني الأسباب التي ربما أدت إلى النزاع بين الملك عبد العزيز والإخوان هو توقيع الملك عبد العزيز اتفاقية بحرة مع المفوض البريطاني كلايتون في عام 1344هـ التي حددت بموجبها الحدود بين السعودية والعراق، ثم وقعا اتفاقية حدَّة التي حددت الحدود بين السعودية والأردن. وكان معنى هذا بالنسبة للإخوان منعهم من غزو من كانوا ينظرون إليهم بأنهم يستحقون الغزو دينياً. أما الحادثة الثالثة فقد حدثت في حج 1344هـ حين اندلع اقتتال بين الإخوان وبين حراس المحمل المصري، فراح ضحية لذلك الاقتتال أربعون من الإخوان. وقد نتج عن هذه الحادثة خلاف سياسي بين السعودية ومصر من جهة، وبين الملك عبد العزيز والإخوان من جهة أخرى حيث رأوا أنه يحمي المحمل المصري الذي تصحبه الموسيقي والبدع في المشاعر المقدسة.

اجتمع الإخوان في الأرطاوية في عام 1345هـ وأعلنوا مآخذهم على الملك عبد العزيز. فلما علم بذلك عاد من الحجاز إلى نجد وحاول تهدئتهم من خلال إرسال الأموال والهدايا. ثم دعاهم إلى مؤتمر حضره أكثر زعماء الإخوان ما عدا ابن بجاد، وقد انتهى ذلك المؤتمر باستفتاء العلماء حول بعض القضايا التي أثارها الإخوان. فأنكروا ما أنكره الإخوان من فرض المكوس، وتوقفوا في مسألة البرق والهاتف، ولكنهم ربطوا قضية الجهاد بالإمام.

وفي عام 1347هـ سار ابن بجاد بأتباعه إلى الأرطاوية، فانضم إليه أتباع الدويش وسار بالجميع شمالاً، فصادفوا في طريقهم قافلة لعقيلات بريدة فصادروها وقتلوا أصحابها. وبذلك اتضح أن جهادهم لم يكن موجهاً إلى من هم خارج البلاد وحدهم -كما يزعمون هم- وإنما شمل أبناء البلاد أيضاً. فأمر الملك حينئذٍ أتباعه بالاستعداد للقتال، والتوجه إلى القصيم. وصل الملك عبد العزيز بريدة واجتمع عنده عدداً كبيراً من أتباعه. ولما اكتملت قواته توجه بالجميع إلى الزلفي. أما ابن بجاد والدويش فقد تحركا من الأرطاوية إلى روضة السبلة القريبة من الزلفي. وفي السبلة هاجمهم الملك عبد العزيز فاكتسحتهم قواته، ففر سلطان بن بجاد من أرض المعركة، وأصيب فيصل الدويش فحمله أتباعه إلى الأرطاوية.

تحرك الملك عبد العزيز إلى الأرطاوية، ولما اقترب منها جيء بالدويش محمولاً على نعش، فطلب العفو من الملك فعفا عنه وأمر طبيبه الخاص بالكشف عليه ومعالجته. فلما علم ابن بجاد بعفو الملك عن الدويش توجه إليه في الرياض طالباً العفو، ولكن الملك قبض عليه وأودعه السجن في الرياض.

ما إن هدأت الأمور نوعاً ما في نجد حتى تمرد العجمان في الأحساء بقيادة نايف بن حثلين. فلما علمت عتيبة التي كانت ناقمة على الملك عبد العزيز بسبب ما فعله بسلطان بن بجاد بتمرد العجمان اجتمعت تحت قيادة مقعد الدهينة وانضمت إلى العجمان. أما فيصل الدويش فكان حينئذٍ قد شفي من جراحه فعاد إلى نشاطه. وقد أرسل ابنه عبد العزيز ومعه ثمان مئة من الإخوان إلى شمال البلاد ليغزو بعض القبائل هناك. علم بتحركه عبد العزيز بن مساعد بن جلوي أمير حائل، فجمع قوات من حائل، ورصد لعبد العزيز الدويش عند مورد أم رضمة. فوقعت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بمقتل عبد العزيز الدويش ومعه خمس مئة من أتباعه، وقد حدثت تلك المعركة في عام ا1348هـ.

بعد هزيمة الإخوان في السبلة وأم رضمة أيقن الكثير منهم بأنه لا قبل لهم بقتال الملك عبد العزيز، فبدأوا ينفضون عن قادتهم ويطلبون الأمان من الملك عبد العزيز. أما قادة الإخوان كفيصل الدويش ونايف بن حثلين فقد ظلوا مطاردين حتى قبضت عليهم السلطات البريطانية في الجهراء -في الكويت- ثم نقلوا في سفينة بريطانية وسلموا للملك عبد العزيز الذي أودعهم في سجن الرياض. وبذلك انتهى تمرد حركة الإخوان.

**ضم جازان**

كانت جازان خاضعة لمحمد الإدريسي الذي كان له دوراً عدائياً بارزاً ضد الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى فكان حليفاً لإيطاليا، ثم وقع معاهدة حماية مع بريطانيا كتلك المعاهدات التي وقعتها بريطانيا مع أمراء الخليج العربي. وبعد نهاية الحرب العالمية وقع معاهدة حسن جوار مع ابن سعود في عام 1339هـ.

ولما توفي محمد الإدريسي في عام 1341هـ خلفه في الحكم ابنه علي الذي كان عمره سبعة عشر عاماً فقط، مما جعل حاكم اليمن يتطلع لمد نفوذه في المناطق التابعة لجازان، فاستولى على الحديدة والمناطق القريبة منها. فكان هذا مبرراً لمعارضي الأمير علي بأن يثوروا عليه، وقد نجح عمه الحسن بانتزاع الإمارة منه في عام 1344هـ. وقد تزامن وصوله إلى الحكم مع نجاح الملك عبد العزيز بالسيطرة على الحجاز وبروزه كقوة عظمى في المنطقة، فأراد أن يحمي مناطق حكمه من أطماع حاكم اليمن وعقد اتفاقية حماية مع الملك عبد العزيز في مكة في عام 1345هـ. من خلال هذه الاتفاقية أصبحت الأمور الداخلية في جازان تحت سلطة الإدريسي والأمور الخارجية تحت سلطة الملك عبد العزيز.

وقد بقيت الأمور على هذا المنوال حتى بدأ الملك عبد الله ملك الأردن بتحريض الحسن الإدريسي في جازان وحامد بن رفادة في شمال الحجاز بالثورة على ابن سعود. فحشد الحسن أنصاره وحاصر مبعوث الملك عبد العزيز في جازان -فهد بن زعير- فاضطر ومن معه للاستسلام. ولما بلغ الملك عبد العزيز الخبر أرسل سبعين سيارة إلى جازان بقيادة خالد القرقني وحمد بن سليمان، وكان ذلك في عام 1351هـ. ثم بعث عدة جيوش بقيادة عبد الوهاب أبو ملحة وخالد بن لؤي وعمر بن ربيعان وعبد العزيز بن مساعد بن جلوي. أصبح ابن جلوي القائد العام لتلك الجيوش، وقد نجح بهزيمة الإدريسي الذي فر ومعه عدداً من أتباعه إلى اليمن.

**المراجع:**

عبد الله الصالح العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، 2: 167-235.

محمد المانع: توحيد المملكة العربية السعودية، 74-194.